

لماذا . . . « الطوفان » ؟ ؟

كثيراً ما واجهت مشكلة اختيار عناوين القصص التي أكتبها ، وهي على أى حال مشكلة تقليدية يواجهها كل أديب وكاتب .

لكننى لم أتصور أن اختيار عنوان لكتاب عسكري سياسى سيمثل بالنسبة لى مشكلة أكبر ! وبخاصة أن كتابى الأول عن حرب أكتوبر لم يحمل معه هذه المشكلة إذ فرض شكله ومضمونه العنوان الذى اخترته له بغير ما جهد وهو « يوميات مذيع فى جبهة القتال » . أما هذا الكتاب فقد كانت حكاية عنوانه - معى - حكاية ! ! لقد أجهدت نفسى فى البحث عن « الصفة » التى تلخص محصلة ما دار فى جبهات القتال العربية الإسرائيلية منذ أشارت عقارب الزمن التاريخى إلى الدقيقة الخامسة بعد الثانية من ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ . . وقد ضاعف من حجم المشكلة أننى لم أكن بصدد « ابتكار » عنوان بقدر ما كنت مصمماً على « التقاط » عنوان من عشرات ومئات « الصفات » التى ترددت فى التعليقات والدراسات التى صدرت عن هذه الحرب . والأكثر من ذلك أننى - التزاماً بالموضوعية الكاملة التى اخترتها منهاجاً لا أحميد عنه فى كتابتى - قررت أن تكون « الصفة » المنشودة صادرة عن شخصية غير عربية تفادياً لأى شبهة تحيز أو مبالغة . بل إننى فضلت أن تكون صادرة عن شخصية إسرائيلية .

١ - هل أختار كلمة « الزلزال » التى ردها واحد من أخطر المعلقين الإسرائيليين وهو (زئيف شيف) فى أكثر من مقال له (كمناله فى صحيفة هآرتس الصادرة فى ١/٨/١٩٧٥) والتي يتساءل فيها : « هل تعود القيادة الإسرائيلية العسكرية إلى أسلوبها الذى كانت تتبعه قبل أن يفاجئها « الزلزال » فى أكتوبر ٧٣ ؟ » . . لقد ردد الرجل الكلمة أكثر من مرة ، بل إنه اختارها عنواناً لكتابه الذى انتهت إحدى مطابع إسرائيل من طباعته منذ شهور قليلة . . ثم إن عدداً غير قليل من المعلقين الإسرائيليين استخدموا الكلمة نفسها « زلزال » فى وصف ما جرى - بالنسبة لجيشهم ودولتهم - فى حرب أكتوبر . بل إن كاتباً فرنسياً معروفاً هو « أريك رولو » جعلها عنواناً لسلسلة مقالاته وتحقيقاته التى نشرها فى صحيفة « لوموند » حول (ما أحدثته حرب أكتوبر من زلزال عسكري وسياسى واقتصادي

واجتماعى ونفسى فى إسرائيل) .

٢ - أم أختار كلمة « الكارثة » التى كان أول من نطق بها صقر المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وإله حربهم السابق الجنرال موشيه ديان ، حين وقف منهاراً أمام رئيسة وزراءهم جولدا مائير وقال لها بحروف مرتبكة متآكلة : « إننا نواجه كارثة كبرى . . لقد أخطأت . . لقد أخطأت يا جولدا ! » .

والمثير أن السيدة جولدا مائير نفسها رددت الكلمة ذاتها « الكارثة » بعد ذلك حين سمعها الإسرائيليون تقول لهم فى إذاعتهم العبرية إن حرب أكتوبر . . كانت كارثة بالنسبة لنا . »

بل إن الكلمة فرضت نفسها على الآخرين . . ومنهم جورج إليزى رئيس المنظمة اليهودية فى استراسبورج . الذى قال « لقد أسفرت حرب أكتوبر عن « كارثة » بالنسبة لإسرائيل » . كما أن الجنرال حاييم بارليف وجه نداء قال فيه (أيتها الأمهات الثكالى . . إنها « كارثة » حلت بنا . ولكن يعزينا أنكن مواطنات صالحات قدمتن فلذات الأكباد لمعركة بقائنا . . بقاء إسرائيل) .

٣ - ولكن . . هذا عنوان آخر يحاول إغراء قلمى ، « نهاية العالم » ولعل ما يضيف إلى قوة إغرائه أنه صدر عن مجموعات من الجنود الإسرائيليين الذين وصفوهم بأنهم « لا يقهرون . . وعلى كل شيء قادرين . . » لقد قال هؤلاء الجنود فى تصويرهم لما حدث لهم فى حرب أكتوبر « أنهم تصوروا ما يجرى وكأنه « نهاية العالم » بالنسبة لهم . وقد سجل ذلك بقلمه الكاتب الشهير « جان كلود جيويه » فى كتابه « الأيام المؤلمة فى إسرائيل » .

٤ - أم ترانى أختار كلمة « الصاعقة » التى ردها بعض الكتاب والضباط الإسرائيليين - وكان آخرهم موشيه دور فى مقاله بصحيفة معاريف والذى قال فيه « إن الحرب نزلت على إسرائيل كصاعقة البرق . . فصحقت كل شيء ! ! » .

٥ - ويظل على عنوان آخر له مدلوله الخطير : « عصر ما بعد الصهيونية » وقد جاءت هذه الكلمات على لسان الأستاذ الإسرائيلى « إلغازار » المحاضر بجامعة بار - إيلان والأستاذ فى جامعة تمبل فى بنسلفانيا « فقال فى إحدى دراساته : « إن حرب أكتوبر قد أثبتت خطأ الحلم الصهيونى بأن دولة إسرائيل ستؤدى إلى تمتع الشعب اليهودى بالحياة السوية . لقد ثبت أنه حلم خاطئ من أساسه . وأصبح من المحتمل أن حرب أكتوبر قد

نقلت اليهود إلى « عصر ما بعد الصهيونية » .

٦- أخيراً . . . وليس آخراً . . . ها هو ذا عنوان يحمل إيقاع حروفه معنى تدفق الأحداث وردود الفعل الضخمة التي بدأت مع السادس من أكتوبر من عام ١٩٧٣ . ثم إن صاحبه هو المتحدث العسكري الإسرائيلي ومدير مخابراتهم السابق ، ومندوب إسرائيل في الأمم المتحدة ، ثم إنه أكبر معلقهم العسكريين .

والأهم من ذلك أنه ارتبط بحرب أكتوبر لأن كتاباته وتعليقاته كانت تحظى باهتمام وتقدير خاصين ، إلى أن اهتزت صورته هو الآخر حين أوقعته نتائج المعارك في تناقضات مخجلة كادت تقضى على سمعته الكبيرة . إنه الجنرال حاييم هيرتسوج . والكلمة التي صدرت عنه ورشحت نفسها عنواناً لكتابي هذا هي « الطوفان » . وقد وردت في مقال له بصحيفة هآرتس عدد ١٣/١١/١٩٧٣ . . . حين قال « إننا نعيش بعد الطوفان . ولا خيار لنا إلا أن نكيف أنفسنا مع الواقع الجديد الصعب وغير المريح . واقع ضاعت معه كل الإنجازات التي جمعناها طوال أعوام وخصوصاً بعد حرب الأيام الستة في ١٩٦٧ .

لقد أصيبت إسرائيل بضربة قوية ، وتحطمت مسلمات ، وترزعزت أسس كانت حتى وقت قريب جداً بمثابة البديهيات ! ! « . . . وإذا كان السيد حاييم هيرتسوج - بكل رصيده الفكري والعسكري والسياسي قد اعترف بأن حرب أكتوبر كانت « طوفاناً » فإننا يجب أن نتوقف - باهتمام - أمام هذه الكلمة خاصة وأن وزير الخارجية الإسرائيلي - وقتها - أبا إيبان - قد ردد المعنى نفسه حين قال في ١١/١١/٧٣ : « إن إسرائيل واجهت في حرب أكتوبر تهديداً حقيقياً وخطيراً . حتى إن الأمر تطلب قراراً على أعلى مستوى في الولايات المتحدة الأمريكية لكي لا تتعرض إسرائيل « للغرق » .

. . . كذلك فقد ورد الوصف نفسه على لسان مؤلفي كتاب « المحdal » الإسرائيليين حين قالوا بالحرف الواحد . « كانت الدبابات الإسرائيلية تحاول القيام بمهمة كبح « الطوفان المصري » !

* * *

. . . هكذا تكاثرت أمامي « العناوين » التي كان على أن أختار واحداً منها ، وهي جميعها - كما هو واضح - تغرى بالاختيار ، لأنها تعبير حي عما أحدثته حرب أكتوبر في إسرائيل .

لكنني انحزت تماماً للكلمة « الطوفان » عنواناً لهذا الكتاب ربما لحجم ومكانة من

أطلقها سواء كان الجنرال حاييم هيرتسوج برغم حرصه ودهائه . أو آبا إيبان برغم دقته
الديبلوماسية في اختيار الكلمات التي ينطقها . أو مؤلفي كتاب المحدال الإسرائيليين السبعة
الذين قرنوا هذه الصفة « الطوفانية » بقصص ووقائع من قلب ميادين القتال . وربما لأنه -
وقد مر أكثر من ثلاثة أعوام على اندلاع الحرب - تتوالى ردود الفعل والتقلصات المتعسرة في
إسرائيل - مما يجعل هذه الكلمة « الطوفان » خير تعبير عما تعرضت له جيشاً واقتصاداً بل
وكياناً . . منذ تدفقت أولى موجات العبور المصرى والافتحام السورى في الساعة ١٤٠٥ من
ظهر السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

• ترى ألم يكن اختيار العنوان مشكلة حقيقية كما اتضح من سرد بعض العناوين التي
تراجعت أمامي ؟

• ثم . . ألم يكن « الطوفان » هو العنوان الأنسب والأقوى تعبيراً ومضموناً ؟ .
• أرجو أن أكون قد وفقت في الاختيار . . مع رجائي بأن أوفق إلى عرض ملامح هذا
الطوفان . . وأبرز ما دار معه وفيه وبعده !

حمدي الكنيسى